

﴿ هو سبأكم المسلمين من قبل ﴾ قال : الله عز وجل ؛ وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ هو سبأكم المسلمين من قبل ﴾ يعني إبراهيم ، وذلك قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن فريقتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له ، لأنه من المعلوم ان إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هو سبأكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ قال مجاهد : الله سبأكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر ، ﴿ وفي هذا ﴾ يعني القرآن ؛ وكذا قال غيره . (قلت) وهذا هو الصواب ، لأنه تعالى قال ﴿ هو اجبتاكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتل على الأخبار والرهبان ، فقال ﴿ هو سبأكم المسلمين من قبل ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ وفي هذا ﴾ روى النسائي عند تفسير هذه الآية : أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب ، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره ، قال : أخبرني الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جنى جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصل ؟ قال « نعم وإن صام وصل » فادعوا بدعوة الله التي سبأكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله ، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ من سورة البقرة ، ولهذا قال ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسط عدولاً خياراً مشهوداً بعد التكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها ، فلهاذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغشى عن إعادته .

وقوله ﴿ فأتيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاريج ، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة . وقوله ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأييدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء . قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرني إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبت فلا أحقق فيمن أحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بصرتي ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبي حاتم ، والله أعلم .

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

آياتها
١١٨

ترتيبها
٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرني يونس بن سليم قال : أملى علي يونس بن يزيد الأيلي عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرض عنا وأرضنا » - ثم قال - لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر ، ورواه الترمذي في تفسيره ، والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به ، وقال الترمذي : منكر لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم ، ويونس لا نعرفه .

وقال النسائي في تفسيره : أنبأنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جعفر عن أبي عمران عن يزيد بن يونس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، فقرأت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ . وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم : لما خلق الله الجنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها : تكلمي ، فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها . وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك في كتابه .

وقد روي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، فقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا المغيرة بن مسلمة ، حدثنا وهيب عن الجريري عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : خلق الله الجنة لينة من ذهب ولينة من فضة ، وغرسها وقال لها : تكلمي ، فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فدخلتها الملائكة ، فقالت : طوبى لك منزل الملوك ، ثم قال : وحدثنا بشر بن آدم ، وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري ، حدثنا عدي بن الفضل ، حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال « خلق الله الجنة لينة من ذهب ولينة من فضة ، وملاطها المسك - قال البزار : ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث - حائط الجنة لينة ذهب ولينة فضة ، وملاطها المسك . فقال لها : تكلمي ، فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك » . ثم قال البزار : لا نعلم أحداً رفعه إلا عدي بن الفضل وليس هو بالحافظ ، وهو شيخ متقدم الموت .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن علي ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا بقیة عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الجنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي ، فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ » بقية عن الحجازيين ضعيف . وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا حماد بن عيسى العبسي ، عن إساعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس يرفعه « لما خلق الله الجنة عدن بيده ، ودلى فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن المثنى البزار ، حدثنا محمد بن زياد الكلبي ، حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله الجنة عدن بيده : لينة من درة بيضاء ولينة من ياقوتة حمراء ولينة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها انطقي ، قالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقال الله : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح ، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ خاشعون ﴾ خائفون ساكنون ؛ وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوع خشوع القلب ؛ وكذا قال إبراهيم النخعي . وقال الحسن البصري : كان خشوعهم في قلوبهم ، ففضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا الجناح . وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم . قال محمد بن سيرين : وكانوا يقولون : لا يجاوز بصره مصلاه ، فإن كان قد اعتاد النظر فليخمس ؛ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسل أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « حيب إليّ الطيب والنساء ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال يا بلال «أرحنا بالصلاة» . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد أن محمد بن الحنفية قال : دخلت مع أبي علي صهر لنا من الأنصار ، فحضرت الصلاة ، فقال : يا جارية اتني بوضوء لعلي أصلي فاستريح ، فرآنا أنكرونا عليه ذلك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة» .

وقوله ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ، والمعاصي كما قاله آخرون ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك . وقوله ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ؛ والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة ، قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله ﴿ قد أفلح من زكاهما ﴾ وقد خاب من دسأها ﴿ وكقوله ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ على أحد القولين في تفسيرهما ، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا ، والله أعلم .

وقوله ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيها نهاهم الله عنه من زنا ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ، ولهذا قال ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ فمن ابتغى وراء ذلك ﴿ أي غير الأزواج والاماء ﴾ فأولئك هم العادون ﴿ أي المعتدون . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت : تأولت آية من كتاب الله ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فأق بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ : تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها ، قال : فضرب العبد وجز رأسه ، وقال : أنت بعده حرام على كل مسلم ؛ هذا أثر غريب منقطع ، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو هنا البين ، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدتها ، والله أعلم .

وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمنا باليد بهذه الآية الكريمة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴿ قال : فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال : حدثني علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر بن حسان بن حميد ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره» هذا حديث غريب ، وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته ، والله أعلم .

وقوله ﴿والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها ؛ وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» . وقوله ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أي ؟ قال « وبر الوالدين » . قلت : ثم أي ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » . أخرجاه في الصحيحين . وفي مستدرک الحاكم قال « الصلاة في أول وقتها » .

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ يعني في مواقيت الصلاة ؛ وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة . وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها ، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ «استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال ﴿ أولئك هم الوراثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . وثبت في الصحيحين أن رسول

الله ﷻ قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ » وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ قال : ما من عبد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ومنزل في النار ؛ فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ويبني بيته الذي في النار . وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك ؛ فالؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً ، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « يحيى ناس يوم القيامة من المسلمين يذنبون أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » ، وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال : هذا فكاكك من النار » فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسوله الله ﷺ بذلك قال : فحلف له ؛ قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ وكقوله ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير ؛ الجنة بالرومية هي الفردوس ؛ وقال بعض السلف : لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب ، فالله أعلم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾

لَقَدْ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْوُجوهَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

مَّا خَرَفْتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون . وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبي يحيى عن ابن عباس ﴿ من سلالة من طين ﴾ قال : من صفوة الماء . وقال مجاهد : من سلالة أي من مني آدم . وقال ابن جرير : إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه وقال قتادة : استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق ، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب ، وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون ﴾ . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا أسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبث والطيب وبين ذلك » وقد رواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه . وقال الترمذي : حسن صحيح ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف ، كما قال ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني الرحم معد لذلك مهياً له ﴿ إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ﴾ أي مدة معلومة وأجل معين حتى استحكمت ونقل من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة ، ولهذا قال ههنا : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة ؛ قال عكرمة : وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي قطعة كالبيض من اللحم لا شكل فيها ولا تحطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبيها وعروقها .

وقرأ آخرون ﴿ فخلقنا المضغة عظماً ﴾ قال ابن عباس : وهو عظم الصلب ، وفي الصحيح من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب » ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار

خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا جعفر بن مسافر ، حدثنا يحيى بن حسان ، حدثنا النضر يعني ابن كثير مولى بني هاشم ، حدثنا زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إذا أنت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث ، فذلك قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نفخنا فيه الروح . وروي عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح ، قال ابن عباس ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نفخنا فيه الروح ؛ وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد ، واختاره ابن جرير .

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً ، ثم احتلم ثم صار شاباً ، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا . وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ؛ ولا منافاة فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التقلبات والأحوال ، والله أعلم . قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق وإن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغاً مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربعة كلمات : رزقه ، أجله ، وعمله ، وهل هو شقي أو سعيد ، فالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها ، أخرجه من حديث سليمان بن مهران الأعمش .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي خيثمة قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر ، فتمتث أربعين يوماً ، ثم تعود في الرحم فتكون علقه . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا حسين بن الحسن ، حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي ؛ فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، قال : فجاءه حتى جلس ، فقال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال : « يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فاما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب ، واما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم » فقال : هكذا كان يقول من قبلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة ، فيقول : يارب ماذا ؟ شقي أم سعيد ، أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ، فيكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص » وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو هو ابن دينار به نحوه ؛ ومن طريق أخرى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد عن أبي شريحة الغفاري بنحوه ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله وكل بالرحم ملكاً ، فيقول : أي رب نطفة ، أي رب علقه ، أي رب مضغته ؛ فإذا أراد الله خلقها قال : أي رب ، ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال : فذلك يكتب في بطن أمه » أخرجه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به .

وقوله ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق ، قال ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا علي بن زيد عن أنس قال : قال عمر ، يعني ابن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع : نزلت هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية ؛ قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . وقال أيضاً : حدثنا أبي حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي ، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال : أملى علي رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين - إلى قوله - خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال «ها تختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » وفي إسناده جابر بن زيد الجعفي ضعيف جداً ، وفي خبره هذا نكارة شديدة ، وذلك أن هذه السورة مكية ، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً ، فانه أعلم . وقوله ﴿ ثم

إنكم بعد ذلك لميتون ﴿ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴾ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿ يعني النشأة الآخرة ﴾ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴿ يعني يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان ، عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد .

وقوله ﴿ سبع طرائق ﴾ قال مجاهد : يعني السموات السبع ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ تسبيح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي ويعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعرة ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِمِدْقَدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ

نُكْرَفِهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةً وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٍ لِالْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي

الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسَفِّهُوا بِطُورِهَا وَالْكَرْمِهَا سَعْفٌ كَثِيرٌ وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله المطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعميران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به ، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحتمل دمتها إنزال المطر عليها ، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها الأرض الجرز ، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترقه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يجعل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور .

وقوله ﴿ فأسكنناه في الأرض ﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله ﴿ وإنا على ذهابٍ به لقادرون ﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفته عنكم إلى السباح والبراري والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجلاً ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتسعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً ، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والثمار ، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتنتظرون منه وتتنظفون ، فله الحمد والمئة .

وقوله ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ﴿ ذات بهجة ﴾ أي ذات منظر حسن . وقوله ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ أي فيها نخيل وأعناب ، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره ، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون

عن القيام بشكره . وقوله ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ، كما قال ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ . وقوله ﴿ ومنها تأكلون ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون .

وقوله ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ يعني الزيتون ، والطور هو الجبل . وقال بعضهم : إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر ، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً ، والله أعلم ، وطور سيناء هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون . وقوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال بعضهم : الباء زائدة ، وتقديره تنبت الدهن كما في قول العرب : ألقى فلان يده ، أي يده ، وأما على قول من يضمن الفعل ، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ، ولهذا قال ﴿ وصيغ ﴾ أي آدم ، قاله قتادة ، ﴿ للاكلين ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والأصطباغ ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامي ، عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة ﴾ .

وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله ﷺ قال ﴿ اتنموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة ﴾ ، ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق . قال الترمذي : ولا يعرف إلا من حديثه ، وكان يضطرب فيه ، وربما ذكر فيه عمر ، وربما لم يذكره . قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن غيلة عن أبيه عن جده قال : ضفت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد ، وأطعمنا زيتاً ، وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ .

وقوله ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وحلى الفلك تحملون ﴾ يذكر تعالى ما جعل خلقه في الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرت ودم ، ويأكلون من حملاتها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم ، كما قال تعالى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ولذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ

مَاهَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٦٨﴾ إِنَّ هُوَ

إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَا يُتَّبَعُ ۚ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٩﴾

يجبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعث إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد ، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أي الاتخافون من الله في إشرارككم به ؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ يعنون يترفع عليكم ، ويتعاطم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم ، فكيف أوحى إليه دونكم ﴿ ولو شاء الله لآنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا ، أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين ، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية . وقوله ﴿ إن هو إلا رجل به جنه ﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انظروا به ريب المنون ، واصبروا عليه مدة حتى نستريحوا منه .

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بَدُونَ ﴿٧٠﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

وَوَحَيْنَا لَهُ إِذْ جَاءَهُ أَمْرُنَا وَكَانَ الثَّخُورُ مُسَلِّكًا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاطِنٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

مِنْهُ ۖ وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٧١﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مَّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣١﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستصره على قومه ، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال ههنا ﴿ رب انصرنني بما كذبون ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يجعل فيها من كل زوجين اثنين ، أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يجعل فيها أمهه ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، والله أعلم .

وقوله ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغفون ﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رافة بقومك وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغفون على ما هم عليه من الكفر والطغيان ، وقد تقدمت القصة مبسوطه في سورة هود بما يعني عن إعادة ذلك ههنا . وقوله ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجاننا من القوم الظالمين ﴾ كما قال ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴿ وقد امتثل نوح عليه السلام هذا ، كما قال تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه ، وقال تعالى : ﴿ وقال رب انزلي مني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ . وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيها جاؤوا به عن الله تعالى ، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء . وقوله ﴿ وإن كنا لمتبلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

فَرَأَيْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرْنًا آخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَآرْسَنَّا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ لَئِنِ اتَّخَذْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْرًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِفْكًا بَشَرًا مِّثْلَكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥﴾ هِيَآتْهُنَّ لِمَا تَوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيْكَلُنَا الدُّنْيَا نَعْمَتٌ وَنَحْيًا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين ؛ قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ؛ وقيل : المراد بهؤلاء ثمود لقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم ، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، وكذبوا بقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجنائي وقالوا ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ هيهات هيهات لما توعدون ﴿ أي بعيد بعيد ذلك ﴾ إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ﴿ أي فيها جاءكم به من الرسالة والندارة والأخبار بالمعاد ﴾ وما نحن له بمؤمنين ﴿ قال رب انصرنني بما كذبون ﴾ أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم ، فأجاب دعاه ﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم ، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ . وقوله ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقيقير التافه المالك الذي لا ينتفع بشيء منه ، ﴿ فبعثنا للقوم الظالمين ﴾ كقوله ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَاجَاءِ أُمَّةٍ رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَ الْقَوْمَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونًا آخرين ﴾ أي أممًا وخلائق ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة ، وقرنًا بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف ، ﴿ ثم أرسلنا رسلاً تترى ﴾ قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضاً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمتهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ . وقوله ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ . وقوله ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكتناهم ، كقوله ﴿ وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح ﴾ . وقوله ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس كقوله ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٨﴾ فَقَالُوا نَرَاهُ لِلشَّرِّينِ شَيْكًا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٩﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات ، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعها والانقياد لامرهما لكونها بشيرين ، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه ، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين ، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة ، فيها أحكامه وأوامره ونواهيته ، وذلك بعد أن قسم الله فرعون والقيط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكتنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون ﴾

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليها السلام أنه جعلها آية للناس ، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . وقوله ﴿ وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ؛ وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة .

قال ابن عباس : وقوله ﴿ ذات قرار ﴾ يقول ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ يعني ماء ظاهراً ؛ وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة . وقال مجاهد : ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ استوى الماء فيها . وقال مجاهد وقتادة ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة : من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربو إلا بمصر ، والماء حين يسي يكون الربو عليها القرى ، ولولا الربو غرقت القرى ؛ وروي عن وهب بن منبه نحو هذا ، وهو بعيد جداً .

وروي ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال : هي دمشق ، قال : وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سبالك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ قال : أنهار دمشق . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿ وآويناها إلى ربوة ﴾ قال : عيسى ابن مريم وأمه حين أوبا إلى غوطة دمشق وما

الكافرين أمهلهم رويداً ﴿ وقال تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .
 وقوله ﴿ أيجسبون أمنا غددهم به من مال وبينن تسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أيقظ هؤلاء المغرورون
 أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿ نحن أكثر أموالاً
 وأولاداً وما نحن بمعجزين ﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نعمل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء ، ولهذا
 قال ﴿ بل لا يشعرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾
 الآية . وقال تعالى : ﴿ إنما غلبي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث
 لا يعلمون ﴾ وأملئ لهم ﴿ الآية ؛ وقال ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً - إلى قوله عتيداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا
 أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ الآية ؛ والآيات في هذا كثيرة .

قال قتادة في قوله ﴿ أيجسبون أمنا غددهم به من مال وبينن تسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ قال : مكر والله
 بالقرم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح .
 وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرة المهدلاني ، حدثنا عبد
 الله بن مسعود رضي الله عنه قال : رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي
 الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفس محمد بيده
 لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال « غشمة
 وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينشق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان
 زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرِثَائِهِمْ بُؤْسُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يَسْعَوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَامِسِقُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون
 من الله خائفون منه وجلون من مكرههم ؛ كما قال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة ، وإن الكافر جمع
 إساءة وأمتاً ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية ، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها
 السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ أي أيقنت أن ما كان ، إنما هو عن قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله فهو إن كان
 أمراً فما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيًا فهو عما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيراً فهو حق ، كما قال الله : ﴿ والذين هم بربهم
 لا يشركون ﴾ أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ،
 وأنه لا نظير له ولا كفو له .

وقوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن
 لا يتقبل منهم خوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الاعطاء ، وهذا من باب الاشفاق والاحتياط ؛ كما قال الإمام
 أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا مالك بن مغول ، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت :
 يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويذني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال
 « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من
 حديث مالك بن مغول به بنحوه ، وقال « لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا
 يتقبل منهم ﴾ أولئك يسارعون في الخيرات ﴾ وقال الترمذي : وروي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي
 حازم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا ، وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير
 هذه الآية .

وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروي
 هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك . قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا صخر بن جويرية ، حدثنا إسحاق
 المكِّي ، حدثنا أبو خلف مولى بني جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها ، فقالت : مرحباً بأبي عاصم ،

ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا؟ فقال: أخشى أن أملل؛ فقالت: ما كنت لتفعل؟ قال: جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل: كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: آية آية؟ قال: ﴿والذين يؤتون ما أتوا﴾ ﴿والذين يؤتون ما أتوا﴾ فقالت: أينها أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلي من الدنيا جميعاً، أو الدنيا وما فيها. قالت وما هي؟ فقلت: ﴿الذين يؤتون ما أتوا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف، فيه إسمايل بن مسلم المكي وهو ضعيف، والمعنى على القراءة الأولى، وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر، لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدین أو المقصرين، والله أعلم.

وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا وَلَدَيْنَا كَنْبٌ يَبْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦﴾

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْمَرُونَ

﴿١٦﴾ لَاجْتِمَاعِ النَّيِّمِ إِذْ كُرِمْنَا أَنْ نَنْصُرُونَ ﴿١٦﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ

بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليها في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بل قلوبهم في غمرة﴾ أي في غفلة وضلالة من هذا، أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ.

وقوله ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ولهم أعمال﴾ أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك ﴿هم لها عاملون﴾ قال: لا بد أن يعملوها، كذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد. وقال آخرون ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب، وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهر قوي حسن؛ وقد قدمنا في حديث ابن مسعود «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

وقوله ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى: ﴿وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكلاً وجحياً﴾ الآية؛ وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾. وقوله ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جارتهم أو سكتهم لا محيد ولا مناص ولا زور لزم الأمر ووجب العذاب؛ ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تنلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكسون﴾ أي إذا دعيتم أبيتتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذلكم بأن إذا دعيتم الله وحده كفرتم وإن يشرركم به مؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾.

وقوله ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ في تفسيره قولان. [أحدهما] أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهله، فعل هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال [أحدها] أنه الحرم أي مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. [والثاني] أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. [والثالث] أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل المراد بقوله ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال النسائي في التفسير من سننه: أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما

كروه السمحين نزلت هذه الآية ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ فقال : مستكبرين بالبيت ، يقولون : نحن أهله سامراً قال : كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه ، وقد أطلب ابن أبي حاتم هنا بما هذا حاصله .

أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْفَوْا أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مَنكُرُونَ

﴿١٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قَسَمْتَ لَهُمْ خَرَجًا فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ

وَهُوَ خَيْرٌ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٤﴾

﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى متكرراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آبائهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها أثناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم . وقال قتادة ﴿ أقلم يدبروا القول ﴾ إذا والله يجيدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه به فهلكوا عند ذلك . ثم قال متكرراً على الكافرين من قريش ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانه التي نشأ بها فهم أي أيقنوا على إنكار ذلك والمباينة فيه ، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وهكذا قال المغيرة بن شعبه لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صحرين حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ يحكى قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدية ولهذا قال ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفية والله أعلم .

وقال قتادة : ذكر لنا ان نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له «أسلم» فقال الرجل : إنك لتدعونني إلى أمر أنا له كاره ، فقال نبي الله ﷺ «وإن كنت كارهاً» . وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له «أسلم» فتصعده ذلك ، وكبر عليه ؛ فقال له نبي الله ﷺ «أرأيت لو كنت في طريق وعمر وعث ، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه ، فدعاك إلى طريق واسع سهل ، أكنت تتبعه؟» قال : نعم . قال «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه ، وإني لأدعوك لاسهل من ذلك لو دعيت إليه» وذكر لنا ان نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له «أسلم» فتصعده ذلك ؛ فقال له نبي الله ﷺ «أرأيت لو كان لك فتان أحدهما إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمته أدى إليك ، وهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذلك وإذا ائتمته خانك؟» قال : بل فتاي الذي إذا حدثني صدقي وإذا ائتمته أدى إلي ، فقال نبي الله ﷺ «كذاكم أنتم عند ربكم» .

وقوله ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم في قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ثم قال ﴿ أمهم يقسمون رحمة ربك ﴾ وقال تعالى ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الانفاق ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره خلقه ، تعالى

وقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ أي القرآن ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .
وقوله ﴿ أم تسألهم خرجاً ﴾ قال الحسن : أجراً . وقال قتادة : جملاً ﴿ فخراج ربك خير ﴾ أي أنت لا تسألهم
أجرة ولا جملاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، كما قال ﴿ قل ما
سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ﴾ وقال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ وقال ﴿ قل
لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ وقال ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من
لا يسألكم أجراً ﴾ .

وقوله ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ وإن الذين لا يؤمنون بالأخرة عن الصراط لتأبون ﴿ قال الإمام
أحمد : حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن
رسول الله ﷺ أنه فيما يرى النائم ملكان ، ففعد أحدهما عند رجله ، والأخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجله للذي
عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ، فلم يكن
معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حيرة ، فقال : أرايتم إن
أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا : نعم ، قال : فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء ،
فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن
تتبعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن بين أيديكم رياضاً معشبة من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني ، قال : فقالت
طائفة : صدق والله لتتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه .

وقال الخافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا زهير ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري ، حدثنا
حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إنى تمسك
بجحزكم هلم عن النار هلم عن النار ، وتغلبوني تقاحون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرمل حجركم وأنا
فرطكم على الخوض ، فتردون علي معاً وأشتاتنا أعرفكم بسيماكم وأسائكم ، كما يعرف الرجل الغريب من الأبل في إبله ،
فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأنشد فيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمي ، فيقال : يا محمد إنك لا
تدري ما أحدثوا بعدك ، إنهم كانوا يمشون بعدك الفهقري على أعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها
ثغاء يتادي : يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له
رغاء يتادي : يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها
حمحة فينادي : يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من
أدم يتادي : يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ، وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن الإسناد إلا
أن حفص بن حميد مجهول ، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي (قلت) بل قد روى عنه أيضاً
أشعث بن إسحاق ، وقال فيه يحيى بن معين : صالح ، ووثقه النسائي وابن حبان ،

وقوله ﴿ وإن الذين يؤمنون بالأخرة عن الصراط لتأبون ﴾ أي لعادلون جائزون منحرفون ، تقول العرب :
نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها . وقوله ﴿ ولو رحناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ يخبر تعالى
عن غلظتهم في كفرهم بأنه لو أراح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم ، كما
قال تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ وقال ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار
فقالوا بل لينا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه - إلى قوله - بيمينين ﴿ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون ، قال الضحاك عن ابن عباس : كل
ما فيه ﴿ لو ﴾ فهو مما لا يكون أبداً .

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ

وَالَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ

الْأُولُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿ فما استكانوا ﴾ ، أي ما خشعوا ﴿ وما يتضرعون ﴾ أي ما دعوا ، كما قال تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ﴾ الآية . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن حمزة المروزي ، حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبي عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم ، فقد أكلت العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ الآية ؛ وكذا رواه النسائي عن محمد بن عفيف عن علي بن الحسين عن أبيه به ، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا ، فقال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن عمر بن كيسان ، حدثني وهب بن عمرو بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء : ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب : نحن في طرف من عذاب الله ، والله يقول ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال : وصام وهب ثلاثا متواصلة ، فقيل له : ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال : أحدث لنا فأحدثنا ، يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة .

وقوله ﴿ حتى إذا فتحتنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم ، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء .

وقوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم ، كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليفة وذوره لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والأخريين لميقات يوم معلوم ، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً ، ولا ذكراً ولا أنثى ، ولا جليلاً ولا حقيراً ، إلا أعاده كما بدأه ، ولهذا قال ﴿ وهو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم ، ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما ، كقوله ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ الآية .

وقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد فهر كل شيء ، وعز كل شيء وخضع له كل شيء ، ثم قال نخبراً عن سنكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ﴿ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى ﴾ لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿ يعنون الاعادة محال ، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿ أنذا كما عظاماً نخرة ﴾ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ فإذا هم بالساهرة ﴿ وقال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ الآيات .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنقُوبُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ

وَلَا يُجَارِعُهُمْ إِيَّاتِ كَثُرَتَّعَلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفون له بالربوبية ، وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ ما تعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فقال ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ﴾ أي من مالكتها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات ﴿ إن كنتم تعلمون ؟ ﴾ سيقولون لله ﴿ أي فيعرفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك ﴾ قل ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ ؟ أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم ، يعني الذي هو سقف المخلوقات ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال «شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا وأشار بيده مثل القبة ، وفي الحديث الآخر «ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة» ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمي عرشاً لارتفاعه . وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض في العرش كالتقديس المعلق بين السماء والأرض . وقال مجاهد : ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العلاء بن سالم ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثوري عن عمار الذهبي عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد ؛ وفي رواية : إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ، ولهذا قال ههنا ﴿ ورب العرش العظيم ﴾ أي الكبير . وقال في آخر السورة ﴿ رب العرش الكريم ﴾ أي الحسن البهي ، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر ، ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء . وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم ، أفلا تتخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب التفكير والاعتبار : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبيد الله بن جعفر ، أخبرني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنماً ، فقال لها ابنتها : يا أمه من خلقتك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقتي ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السموات ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : فإني أسمع الله شأناً ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث ، قال عبد الله بن دينار : كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث ، قلت : في إسناده عبيد الله بن جعفر المدني والدة الإمام علي بن المديني ، وقد تكلموا فيه ، فالله أعلم .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول «لا والذي نفسي بيده» وكان إذا اجتهد في اليمين قال «لا ومقلب القلوب» فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فاجار أحداً لا يخفر في جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه ، ولهذا قال الله ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه ، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه ، الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال الله ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أي لا يسأل عما يفعل لعظمتهم وكبريائهم وغلته وقهره وحكمته وعدله ، فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ فوريك نساءهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

وقوله ﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ، ثم قال تعالى :

﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وإينهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك ، كما قال في آخر السورة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادمهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال ، كما قال الله عنهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَبْعُوثٌ لِحُكْمِهِ فَذُكِّرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾

عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾

بنزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة ، فقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم مستق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه ، فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى ، وعبروا عنه بدليل التنازع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منها كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً ، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فتعالى عما يشركون ﴾ أي تقدس وتزّه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَيْنَا أَنْ نُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ

﴿١٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ مَخَّنْ أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ

رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى أمراً بنبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك ، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه «إذا أردت بقوم فتنة فتوفني اليك غير مفتون» . وقوله تعالى : ﴿ وإنا على أن نريك ما تعدهم لقادرون ﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه عبة ، فقال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴿ الآية ، أي وما يليهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدانهم اليهم القبيح ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينفادون بالمعروف ، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» . وقوله تعالى : ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والحجاء والذبيح وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الفرق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند

الموت» وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقوهن عند النوم من الفزع «باسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقوها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحاق . وقال الترمذي : حسن غريب .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم

بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال ﴿ رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت - إلى قوله - والله خبير بما تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب - إلى قوله - ما لكم من زوال ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفاعاء فيشفوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون نكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا - إلى قوله - وإنهم لكاذبون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ والآية بعدها . وقال تعالى ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فها للظالمين من نصير ﴾ فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم .

وقوله ههنا ﴿ كلاً إنها كلمة هو قائلها ﴾ كلاً حرف ردع وزجر ، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أي لا بد أن يقوها لا بحالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلاً ، أي لأنها كلمة ، أي سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه ، ولورد لما عمل صالحاً وكان يكذب في مقاله هذه ، كما قال تعالى ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل ، فرحم الله امرأة عمل فيها يتنمها الكافر إذا رأى العذاب إلى النار .

وقال محمد بن كعب القرظي ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ قال : فيقول الجبار ﴿ كلاً إنها كلمة هو قائلها ﴾ وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً ، يقول الله تعالى : كلاً كذبت . وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ قال : كان العلاء بن زياد يقول : ليتزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمانة الكافر المفرط فاعملوا بها ، ولا قوة إلا بالله ، وعن محمد بن كعب القرظي نحوه . وقال محمد بن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن يوسف ، حدثنا فضيل - يعني ابن عياض - عن ليث عن طلحة بن مصرف ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فبرى مقعده من النار ، قال : فيقول : رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً ، قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمراً ، قال : فيضيق عليه قبره ويلتئم ، فهو كالمتهوس بنام ويفزع ، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثني سلمة بن تمام ، حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم ، حية عند رأسه وحية عند رجله يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى : ﴿ ومن وراءهم البرزخ إلى يوم يبعثون ﴾ . وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى : ﴿ ومن وراءهم ﴾ يعني أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون

ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة ، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون ، وفي قوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد هؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث « فلا يزال معذباً فيها » أي في الأرض .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٥١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٥٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٥٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ ولا يرى والد لولده ولا يلوي عليه ، قال الله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حمياً يبصرونهم ﴾ أي لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره ، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة ، قال الله تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ الآية ؛ وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه - قال يفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً ، ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبد الله بن أبي رافع عن المسور - هو ابن مخرمة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فاطمة بضعة مني ، يعظمني ما يعظمني ، وينشطني ما ينشطها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسبي وصهري » وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال « فاطمة بضعة مني ، يربيني ما يربينا ، ويؤذيني ما آذاها » . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة في الدنيا والآخرة ، وإني أباها الناس فرط لكم إذا جئتم » قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان ، فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتدتمت القهقري ، وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنها قال : أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل سب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا نسبي ونسبي » رواه الطبراني والبيهقي بن كليب والبيهقي ، والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه صدقها أربعين ألفاً إعظاماً وكراماً رضي الله عنه ، فقد روى الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبي القاسم البغوي : حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري » وروي فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً « سألت ربي عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتي ولا يتزوج إلي أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك » ومن حديث عمار بن سيف عن إسماعيل عن عبد الله بن عمرو .

وقوله تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس ، ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث ، حدثنا داود بن المحبر ، حدثنا صالح المري عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يعرفه قال : إن لله ملكاً مولكاً بالميزان ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، إسناده ضعيف فإن داود بن المحبر ضعيف متروك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي

ما كثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿ تلتفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وقال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ الآية .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن أبي سنان ضرار بن مرة عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن جهنم لما سبق لها أهلها تلقاهم لديها ، ثم تلتفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز ، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان ، حدثنا عمرو بن أبي الحارث بن الخضر القطان ، حدثنا سعيد بن سعيد المقبري عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ تلتفح وجوههم النار ﴾ قال : تلتفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم .

وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني عابسون . وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال : ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه . وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبرنا علي بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله ، أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ - قال - تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة ، ورواه الترمذي عن سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك به ، وقال : حسن غريب .

أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تِلْكَ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا

أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقرير من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والماتم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت عليكم الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة ، كما قال تعالى : ﴿ لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ وقال تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - إلى قوله - فصحقاً لأصحاب السعير ﴾ ولهذا قالوا ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أسقى من أن نتقاد لها ونتبعها ، فضلنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ أي ارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة ، كما قال ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * - إلى قوله - فالحكهم الله العلي الكبير ﴾ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون .

قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

فَاتَّخَذُوا لَهُمْ سَخِرَاتٍ حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِرُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول ﴿ اخشوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ، ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي . قال العوفي عن ابن عباس ﴿ اخشوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان المروزي ، حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم إنكم ماكنون ، قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربه فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴿ قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ اخشوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال : فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم ، قال : فشبهت أصواتهم بأصوات

الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل ، حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم ، غير وجوههم والوائهم ، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول : يارب ؛ فيقول الله : من عرف أحداً فليخرجه ، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً ، فيناديه الرجل : يا فلان أنا فلان ؛ فيقول ما عرفك ، قال : فعند ذلك يقولون ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد .

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنين وأوليائه ، فقال تعالى : ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أمتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ فاتخذتموهم سخرياً ﴿ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴾ حتى أنسوكم ذكري ﴿ أي حملكم بغضهم على أن نسيت معاملتي ﴾ وكنتم منهم تضحكون ﴿ أي من صنعهم وعبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ أي يلمزونهم استهزاء : ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ أي على أذاكم لهم واستهزأتكم بهم ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١١﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُورِبُ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أوليائه المتقون ﴿ قال كم لبستم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿ قالوا لبينا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين ﴾ أي الحاسبين ﴿ قال إن لبستم إلا قليلاً ﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ أي لما أترتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفترتم كما فازوا .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير ، حدثنا الوليد ، حدثنا صفوان عن أبيع بن عبد الكلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ : إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، قال : يا أهل الجنة كم لبستم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبينا يوماً أو بعض يوم - قال - لنعم ما انحجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مغلدين ؛ ثم قال : يا أهل النار كم لبستم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبينا يوماً أو بعض يوم ، فيقول : بش ما انحجرتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مغلدين .

وقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً ﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل : للعبث ، أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ أي لا تمودون في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ أحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ يعني هملاً . وقوله ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿ لا إله إلا هورب العرش الكريم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل ، كما قال تعالى : ﴿ وأبئنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا إسحاق بن سليمان شيخ من أهل العراق ، أنبأنا شعيب بن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمة ، وحرّم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه ، وباع نافذاً بباقي وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان ، ألا ترون

أنكم من أصلاب المهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل ، قد قضى نجه وانقضى أجله حتى تغييره في صدع من الأرض في بطن صدع غير مهد ولا موسد ، قد فارق الأحباب وياشر التراب ، ووجه الحساب ، مرتين بعمله ، غني عما ترك ، فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله قبل انقضاء مواعيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف رداثة على وجهه فيكمي وأبكى من حوله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يحيى بن نصير الخولاني ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني ابن هبيرة عن أبي هبيرة عن حسن بن عبد الله أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتعالى الله الملك الحق ﴿ حتى ختم السورة فقرأ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بماذا قرأت في أذنه ؟ ﴾ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال ﴾ وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ قال : فقرأناها فغتمنا وسلمنا .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي ، حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام ، حدثنا بكر بن حبيش عن نيشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أمان أمي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ

وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له ، أي لا دليل له على قوله ، فقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي الله بحسبه على ذلك ، ثم أخبر ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال : أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناماً ؛ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ فأبهم إذا أصابك ضر فدعوتك كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال : ﴿ فأبهم إذا كانت لك حاجة فدعوتك أعطاكها ؟ » قال : الله عز وجل ، قال : ﴿ فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه ، أم حسبت أن تغلب عليه ؟ » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه ؛ فقال رسول الله ﷺ « تعلمون ولا تعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم : لقيت رجلاً خصمني ، هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وقول رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه نحو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويرفقه في الأقوال والأفعال .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الرَّأْيِيَّةُ وَالزَّانِيَةُ فَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مَآةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ

بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾